المحاضرة السادسة في الكورس الثاني / ٢٠ .

استاذ المادة: أ.م.د. عبد المنعم عبد الجبار علي جعفر .

العلوم المساعدة في منهج البحث

هي مجموعة من المعارف والعلوم والأساليب التي يستعين بها الباحث التاريخي في جمع مصادره وفهمها وتمحيصها ونقدها ثم تقديم مادته للقارىء على هيئتها المقبولة .

وترافق هذه العلوم تقريباً جميع المراحل والخطوات التي يتبعها الباحث خلال إعداد بحثه التاريخي .

فيستعين ببعضها في أثناء عملية جمع الأصول والمصادر وبعضها في أثناء عملية النقد والاجتهاد وطائفة منها في المرحلة النهائية وهي مرحلة التأليف والعرض التاريخي .

وإذا كان يتعذر على الباحث أن يتخصص بهذه العلوم المساعدة كلها أو بعضها فإنه يلزم عليه أن يلم بالعلم الذي له صلة مباشرة بموضع بحثه ، فإن العلوم المساعدة تختلف في أهميتها حسب قربها أو بعدها عن الموضوع المراد البحث فيه .

فالعلوم المساعدة التي تلزم الباحث في الحضارات القديمة تختلف عن العلوم المساعدة التي يلزمه الإلمام بها في بحثه عن التاريخ اليوناني أو الروماني أو العربي الإسلامي ، أو التاريخ الأوروبي .

وفيما يلي أهم العلوم المساعدة التي تفيد الباحث في منهج البحث التاريخي والأثري .

١ ـ علم الخطوط القديمة (PALAEOGRAPHY) :

يختص هذا العلم بدراسة الكتابات والخطوط القديمة ويعتبر من العلوم الأساسية المساعدة للباحث التاريخي وله فروع متعددة . مثل علم الخطوط والكتابات في الحضارات القديمة ، كالخط المسماري في حضارة وادي الرافدين والخط الهيروغليفي في حضارة وادي النيل والخط اليوناني القديم والخطوط الرومانية ، والخطوط العربية القديمة ، كالخط المسند والرقعي والكوفي وغيرها . والخطوط الأوروبية في العصور الوسطى التي تطورت واختلفت من عصر إلى آخر . وغيرها من الخطوط القديمة .

تأتي أهمية دراسة الخطوط القديمة لدى الباحث التاريخي حتى يتسنى له الرجوع إلى المصادر التي دونت بها ويجمع منها مادة بحثه .

والمعروف أن كلاً من تلك الخطوط التي ذكرنا أشهرها ، لم يبق على حال واحدة في الشكل والطراز ، بل طرأت عليه تغييرات أساسية بحسب العصور المختلفة ، كما أن خط العصر الواحد يختلف من مؤلف إلى آخر . الأمر الذي يقتضي من الباحث التاريخي أن يكون على علم ومعرفة بأشكال خطوط الوثائق التاريخية وتطورها التي يتفرع منها فرع خاص يتعلق بحل رموز الخطوط القديمة يسمى بمصطلح «أبيغرافيا» (EPIGRAPHY) ويدخل ضمنه معرفة وفحص المواد المختلفة التي استعملت في التدوين في العصور القديمة كألواح الطين والأحجار وأوراق البردي والرقوق وأنواع الورق المختلفة[١] .

٢ ـ علم اللغة :

وهو من العلوم المساعدة المهمة في منهج البحث التاريخي ، وأهم فروعه . فقه اللغة (PHILOLOGY) وعلم معاني المفردات وتطورها (SEMANTICS) . فإن فهم نصوص الوثائق التاريخية التي تكوّن مادة البحث التاريخي يتوقف على معرفة الباحث باللغة المدونة بها .

واللغات تتطور وتتغير من عصر إلى آخر ومن كاتب إلى آخر ، وفهم تطور اللغة تفيد الباحث ليس في فهم محتوى الوثيقة فحسب بل لتحديد زمانها فيما إذا كانت غير مؤرخة وذلك من خلال معرفة نوع الخط الذي كتبت به ، ومن خلال المفردات اللغوية المستخدمة في الكتابة ، حيث أن لكل عصر مفرداته ومصطلحاته وتعابيره .

ويمكن للباحث لفهم اللغة المدونة بها الوثائق التي يجمع منها معلوماته ، أن يستعين بالمعاجم اللغوية الموثوق بها لا سيما المعاجم التي تذكر تاريخ استخدام المفردات اللغوية في العصور المختلفة . وأهمها المعاجم المختلفة التي صدرت في أوروبا والتي تهتم باللغات الأوروبية القديمة كاليونانية والرومانية ، وفيها نجد تاريخ استخدام المفردات وتطورها ، وهناك جداول في تطور حروف الخطوط القديمة ، نذكر منها جداول العلامات المسمارية وأشكالها المختلفة بحسب العصـــور . وغيرها من المعاجم التي تتناول معظم الخطوط في الحضارات القديمة .

١ ـ من أهم المعاجم التي تتناول لغات العراق القديم كالأكدية والبابلية والأشورية ، المعجم الموسع الذي وصفه مجموعة من الباحثين في جامعة شيكاغو ويعرف باسم «المعجم الأشوري» .

٣ ـ علم الوثائق (DIPLOMATICS) :

يهتم هذا العلم بتحقيق الوثائق ونقدها وتحديد أزمانها وإثبات أصالتها ، وهو علم قريب الصلة من فن الأرشيفات التي تتناول الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية التي تختص بالقرارات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والقوانين الاجتماعية والاقتصادية والمشاريع وغيرها من الأمور التي تتعلق بمختلف شؤون الدولة وعلاقاتها مع الدول الأخرى[١] .

ورغم أن هذا العلم حديث النشأة في أوروبا بيد أن الدراسات العربية الحديثة تدل على أن هذا الفن كان معروفاً لدى الباحثين العرب ولا سيما في علم الفقه والحديث وهو ما يعرف بمصطلح علم الشروط[١] .

ولأهمية هذا العلم سوف نفرد له مبحث خاص في هذه الدراسة يتناول تحقيق الوثائق والمخطوطات .

٤ ـ علم النقود (NUMISMATICS)[٢] :

يهتم بدراسة النقود والعملات القديمة ، يطلق عليه أيضاً مصطلح علم «النميات» وتعتبر النقود والمسكوكات التي ظهرت بعد القرن السابع (ق.م) من المصادر التاريخية المهمة التي تساعد الباحث في استخراج معلومات ثمينة عن الحقبة التاريخية التي يدرسها من حيث أحوالها الاقتصادية وأساليب التعامل التجاري والأسعار ، بالإضافة إلى معرفة أسماء الحكام والملوك والسلاطين الذين ضربت بأسمائهم وأسماء المدن التي ضربت فيها النقود ، وتُبين لنا أيضاً مدى اتساع سلطة الحكام واتساع النشاط التجاري والعلاقات التجارية ما بين الشعوب والدول .

وكثيراً ما اكتشف الباحثون من دراستهم للمسكوكات أسماء ملوك وحكام ومدن مجهولة لم تكن معروفة ولم يرد ذكرها في كتب المؤرخين[٣] .

فالمسكوكات وثائق مهمة في تثبيت أو نقض الكثير من الأخبار التي وصلت إلينا عن طريق المدونات التاريخية المختلفة .

فالعملة اليونانية مثلاً تكشف عن كثير من الحقائق في تاريخ الجماعات السياسية التي كانت ذات كيان خاص مكنها من أن تسك العملة ، ولم يعرف

وجود بعض الجماعات إلا عن طريق عملتها التي حفظها التاريخ من الضياع[١] .

وإذا ما ركزنا على المسكوكات الإسلامية فيمكن للباحث في ميادين البحوث التاريخية والأثرية الإسلامية أن يفيد أعظم الفائدة من دراستها في جوانب مختلفة ومتعددة .

فإن أقدم المسكوكات الإسلامية التي وصلتنا تؤكد ما جاء بكتب المؤرخين وهو أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من ضرب المسكوكات في العصر الإسلامي . فقد وصلتنا فلوس نحاسية مضروبة على الطراز البيزنطي مؤرخة من سنة ١٧ هجرية (٦٣٨ م) عليها اسم الخليفة عمر[٢] وضرب في عهده أيضاً مسكوكات على الطريقة الساسانية[٣] كتب عليها عبارات «الحمد لله» «محمد رسول الله» .

والمسكوكات العربية الإسلامية تؤكد أيضاً الأخبار التاريخية التي تفيد بأن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) هو أول من ضرب نقود عربية خالصة[٤] .

ومن المسكوكات ما ضرب للدعاية والحرب النفسية وخير دليل على ذلك الدنانير التي سكها الفاطميون سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) وثبتوا عليها اسم مصر كمحل للضرب وذلك قبل أن يقوموا باحتلال مصر بسبعة عشر عاماً[٥] .

٥ ـ علم الأختام (SPHRAGISTICS) :

يهتم هذا العلم بدراسة الأختام والشارات والتواقيع حيث كانت طرز

التواقيع والأختام والرموز والرسوم المصاحبة لها تختلف من عصر إلى آخر ومن حاكم إلى آخر وبذلك يستعين الباحث التاريخي في تحديد زمن الوثيقة التاريخية الخالية من التاريخ بالإضافة إلى ما يستنتجه عن العهد الذي يبحث فيه من ناحية ألقاب الحكام والملوك والأمراء وشعاراتهم والعبارات الخاصة التي يستخدموها في تواقيعهم .

ويلحق بهذا النوع الشارات التي تنقش على الدروع والرايات وملابس النبلاء والجند ، وقد استخدمت هذه الشارات والإشارات في الحضارات القديمة وفي العصور الوسطى والعصور الإسلامية .

إن معرفة الباحث في التاريخ ، بهذا العلم تجعله قادراً على تحديد تاريخ صنع ما يقع تحت يده من الأسلحة والوثائق وغيرها من الآلات والأدوات الممهورة بختم أو بإشارة معينة من الإشارات التي كانت مستخدمة خلال العصور القديمة[١] .

٦ ـ علم الإنسان (ANTHROPOLOGY)[٢] :

هو العلم الذي يعنى بدراسة الكائن البشري وهذا العلم ينهض برسالته هذه بصورة هي أكثر شمولاً واتساعاً من كافة العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى ، فالإنسان حسب المنظور الأنثروبولوجي (ANTHROPOLOGYICAL, PERSPECTIVE) يمثل حقيقة كبرى يصعب سبر أغوارها إذا أريد الإحاطة بكل أبعادها وجوانبها وعلاقتها في الزمان والمكان والتراكيب والنماذج الحضارية والاجتماعية التي تعبر عنها وعلى هذا الأساس ، يحتضن علم الإنسان أسلوباً نظرياً وتطبيقياً مزدوجاً من حيث نظرته إلى هذا الكائن ، على أنه كائن حضاري (CULTURAL BEING) وطبيعي (NATURAL) في الوقت نفسه .

وهذا العلم في استيعابه اللامحدود لواقع الإنسان يتناول بالبحث الدقيق الأشكال الاجتماعية الكثيرة لنظم الإنسان ، كما يعني بدراسة ماضيه وحاضره ويربط الأحداث والظواهر الجارية بالعوامل المختلفة التي أوجدتها وتفاعلت معها وعلم الإنسان أيضاً ينفتح على واقع الإنسان بجوانبه الفكرية والروحية من جهة والاقتصادية والتكنولوجية من جهة أخرى ، باعتبار الحاجات البشرية تؤخذ من هذين الصنفين من العوامل ، ما دام الإنسان لا يزال يخضع بحكم طبيعته المزدوجة إلى القوى الطبيعية أو البايولوجية بوصفه كائناً حيوياً ، والقوى الحضارية الاجتماعية بوصفه كائناً فكرياً وعقلانياً عقائدياً .

والمعروف عن علم الإنسان أنه قد أبدى اهتماماً كبيراً بدراسة المجتمعات البدائية البسيطة وعلاقاتها وحركاتها على المستوين الفردي والجماعي وعلاقتهما بالتطور الحضاري . وهذا العلم على الرغم من حداثته التي لا تتجاوز المائة عام ، قد حقق نمواً وازدهاراً لم يحققه أي من الاختصاصات الأخرى .

وأعظم ما يميز هذا العلم عن غيره من العلوم هي طبيعته المقارنة (COMPARATIVE NATURE) فكونه قد درس آلاف الجماعات والمجتمعات البشرية في كافة القارات وعلى كل المستويات الحضارية ، تجعل منه علماً مؤهلاً لتوفير الأطر المناسبة لفهم الواقع الإنساني فهماً علمياً غير متحيز .

وعلم الإنسان وعلم الاجتماع يتعاملان في جهود مشتركة كل حسب خلفيته ، فالأنثرويولوجي بما يملكه من تراث ميداني غزير ومتنوع عن الأنظمة الحضارية والاجتماعية العديدة والمختلفة ، قد خدم علم الاجتماع الذي استثمر هذه المعلومات وأفادته في تنقيح الكثير من آرائه السابقة التي بنيت على دراسة مكتبية وانطباعية ناقصة وغير متوازنة ، بسبب اقتصارها على المجتمع الغربي في أوروبا وأميركا .

فكلا العلمين يلتقيان في الأهداف الكبرى التي تتمحور حول فهم النظم

الاجتماعية وما ينتج عنها من علاقات ويرتبط بها من ظواهر حضارية واجتماعية .

كما وأن علماء الإنسان التاريخيين يمكنون الباحث المعاصر من معرفة الكثير من الحقائق عن تاريخ الإنسان الحضاري ، كما يوفرون المعلومات أيضاً عن حضارات الجماعات البدائية التقليدية وتطورها ، والأساليب التي رافقت تعاقب النماذج الحضارية المختلفة لبعضها البعض ، وقد عرفنا من علم الإنسان التاريخي أو الأثاري كيف أن التطور الحضاري (CULTURAL, EVOLUTION) في أنحاء العالم المختلفة لم يجر بسرعة متساوية ، وأن الحضارات الحديثة قد تغيرت كثيراً في مسيرتها التاريخية حتى أصبحت في هيئتها الحاضرة مختلفة تماماً عما كانت عليه في بداية ظهورها قبل مئات الألوف من السنين[1] .

٧ ـ علم الجغرافيا GEOGRAFY :

علم الجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ ، فالأرض هي المسرح التي حدثت عليه وقائع التاريخ ، ومع أن الإنسان هو العامل الحاسم في أحداث التاريخ والحضارة . بيد أن للأحوال الجغرافية لبلد ما أثر بارز في سير تلك الأحداث التي لا يمكن فهمها وتفسيرها على الوجه الأكمل ما لم تدرس في خلفية جغرافية .

والواقع أن الحضارة ما هي إلا نتيجة للتفاعل ما بين قابليات الإنسان وقدراته وسلوكه وبين بيئته الطبيعية ، سواء كان ذلك من ناحية المناخ العام كحالة الأمطار والأنهار والطقس وما تقدمه تلك البيئة من إمكانات اقتصادية ، وموقع البلد الجغرافي واتصالاته . ويكون استغلال الإنسان لها وتسخيرها لصالحه هو الذي يحدد الخصائص التاريخية والحضارية لبلد معين في ضوء خصائصه الجغرافية .

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا في التاريخ ، ما نلاحظه من تأثيرها أحياناً

في تغير مجرى التاريخ ، فمثلاً أعاقت الثلوج دون تقدم الألمان إلى قلب روسيا وحالت دون سيطرة الألمان على روسيا ، كما وأعاق البحر تقدم تيمورلنك عن العبور إلى أوروبا بعد أن هزم بايزيد الأول في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢ م وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية فاستعادت مكانتها بعد قليل[١] وهناك أمثلة كثيرة أخرى تبين لنا مدى تأثير الجغرافيا على مجريات أحداث التاريخ .

وبالرغم من تطور الأساليب في سيطرة الإنسان على بيئته الطبيعية بعد التطورات العلمية والتقنية بيد أن البيئة الطبيعية ، لا زالت ذات آثار بعيدة في حياة الإنسان بمختلف أوجهها ومقوماتها .

٨ ـ علم الاقتصاد ECONOMY :

الاقتصاد من العلوم الضرورية التي تساعد الباحث في التاريخ والآثار على فهم دراسته والإلمام بها بصورة أفضل ولا سيما في المرحلة التي تتعلق بتفسير التاريخ والعوامل المسيَّرة لأحداثه ، فإن العوامل الاقتصادية من وسائل الإنتاج وطرقه وتوزيع الثروة والموارد الاقتصادية ، كل ذلك وغيره من العوامل الحاسمة والمسيّرة للتاريخ ، بحيث أن التفسير المادي للتاريخ أصبح الأساس الذي تقوم عليه النظرية الاشتراكية الماركسية[٢] .

وكذلك يولي كل المؤرخين تقريباً باختلاف مذاهبهم أهمية للأحوال الاقتصادية في تفسير التاريخ باعتبار أنها من العوامل الموجهة لمصائر الشعوب في تقدمها أو انحلالها . وتؤثر الظروف الاقتصادية في علاقة الدول بالعالم الخارجي وفي مستوى مكانتها الدولية وقوتها العسكرية وتأثيرها في اتخاذ القرار على المستوى العالمي خاصة في المنظمات الدولية . فالدولة الأقوى اقتصادياً هي الأقوى عسكرياً وبالتالي هي صاحبة القرار الأول في تقدير مصير الشعوب كما هو الحال في المجتمع الدولي الحديث الذي تتحكم به الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب معروفة .

٩ ـ علم التقويم (CHRONOLOGY) :

هو من العلوم المساعدة المهمة التي تساعد الباحث التاريخي في أداء مهمته بشكل أفضل وأفيد .

والمعروف أن المؤرخين في الحضارات القديمة قد اتخذوا أساليب مختلفة ومتنوعة في تاريخ الأحداث ، أشهرها أن يتخذ من حادثة مهمة ، تاريخاً رسمياً تؤرخ بها الحوادث .

أو حسب سني الملوك والحكام .

وقد أُتبعت تلك الطريقتين في حضارة وادي النيل . واتخذت بعض الحضارات حادثة ثابتة للتاريخ . مثل التاريخ الميلادي ، والتاريخ الهجري .

وحادثة أولى ألعاب «أولمبية» في الحضارة اليونانية وتأسيس مدينة روما عند الرومان ، ويطلق على العهود الثابتة التي يؤرخ بها أو منها مصطلح «العهد» (ERA) وفيما يلي أشهر العهود[١] :

١ ـ العهد العبراني : منذ الخليقة التي حسب تاريخها في (٤٠٠٤ ق.م) .

٢ ـ العهد اليوناني : منذ الدورة الأولى للألعاب الأولمبية (OLYMPIAID) في عام ٧٧٦ ق.م .

٣ ـ العهد الروماني : منذ تأسيس مدينة روما سنة (٧٥٢ ق.م) .

٤ ـ العهد السلوقي في العراق وسوريا في عام (٣١١ ق.م) .

٥ ـ العهد الروماني في سوريا (٦١ ـ ٦٥ ق.م) .

٦ ـ العهد الميلادي ـ ميلاد السيد المسيح في حدود (٢ ـ ٤ ق.م) .

٧ ـ العهد العربي الجنوبي : (١١٠ ـ ١١٥ م) .

٨ ـ العهد القبطي في مصر عام (٢٨٤ م) .

٩ ـ العهد الهجري : (٦٢٢ م) .